البحوث والدراسات

الحب الافتراضي: مقاربة سوسيولوجية

عبد الإله فرج

مركز نهوض للدراسات والنشر
NOHOUDH CENTER FOR STUDIES AND PUBLICATIONS

All rights reserved © 2019
جميع الحقوق محفوظة © ٢٠١٩

الفهرس:

الملخص ٣
مقدمة ٤
أولًا: حول الحبِّ الافتراضي ٥
ثانيًا: من الحبِّ الصلب إلى الحبِّ السائل ٩
ثالثًا: مواقع التعارف على الإنترنت ١٢
رابعًا: ديمقراطية العواطف في زمن العولمة ١٤
خاتمة ١٩
المراجع المعتمدة ٢٠

الملخّص:

- يسعى المقال إلى أن يتناول بالدرس والتحليل ظاهرةً ليست غريبةً عن حياتنا اليومية وليست بعيدةً كل البعد عن الانشغال العلمي، وهي ظاهرة الحب الافتراضي التي ينسجها الرجل والمرأة عبر مواقع الإنترنت، حيث يتداخل في هذه الظاهرة كلُّ العوامل والمؤثرات الاجتماعية والثقافية التي تدفع الأفراد إلى نسج علاقاتٍ سوسيو-عاطفية فيما بينهم. فالمقال يهدف إلى التأكيد على أن شبكة الإنترنت أدت إلى تراجع العلاقات الزوجية التقليدية وبروز نوعٍ جديد من العلاقات العاطفية قائمٍ على المعاشرة والأُلفة بين ثنائي الرجل والمرأة، وأن العلاقات العاطفية بين الرجل والمرأة لا تقتصر فقط على ما هو اقتصادي، بل يتداخل فيها مجموعةٌ من المؤثرات الاجتماعية والثقافية.

- **الكلمات المفتاحية:** الحب - الزواج - الافتراضي - الإنترنت.

مقدمة:

يدخل موضوع المقال ضمن سوسيولوجيا الإنترنت Sociology of the Internet: وهو تخصُّص يركِّز على دراسة الإنترنت وتأثيره في المجتمع البشري ودوره في التغير الاجتماعي، ويحاول هذا الفرع أن يطرح مجموعةً من الإشكالات الجوهرية مثل: هل تساهم الشبكات الافتراضية في ظهور أشكالٍ جديدة في الاجتماع البشري؟ وهل يمكن لهذه الشبكات الافتراضية أن تتحكَّم بالواقع الاجتماعي؟ وهل يمكن للمواطنين الخضوع لهذه الشبكات الافتراضية؟ ولماذا يسعى الأفراد إلى ربط العلاقات عبر ما هو افتراضي؟

لقد شهدت السوسيولوجيا تطورًا ملحوظًا واستثنائيًّا منذ القرن الماضي في دراستها للعديد من المواضيع مثل موضوع الحب (Love)، على الرغم من أن هناك بعض علماء الاجتماع الذين كانوا لا يؤمنون بالإدراك الحسي، الشيء الذي جعلهم ينكرون دورَ الحبِّ في الحياة اليومية، حيث كان موضوع الحب يعتبر من الظواهر المعزولة، ويدخل في كثيرٍ من الأحايين ضمن حقولٍ معرفية أخرى مثل الفلسفة وعلم النفس.

ويرجع اهتمامنا بظاهرة الحب إلى التغير العميق الذي طرأ على هيكلته الاجتماعية بسبب وسائل الاتصال مثل الإنترنت، خاصةً أنه يساهم في إنتاج روابط عاطفية عابرة للحدود؛ حيث كان للعولمة دور مهمٌّ في تعزيز هذه الروابط وتحويل الإنترنت إلى فضاءٍ مشترك للتعارف والبحث عن الحب بامتياز، الشيء الذي جعل من الإنترنت المكانَ الثالث عند شريحة كبيرة من الناس حول العالم بعد أماكن العمل والبيت، من أجل إقامة علاقاتٍ قائمة على الزواج أو على المعاشرة والأُلفة.

يعتبر فضاء الإنترنت لدى العديد من الأفراد "قرية صغيرة" تقوم على مبدأ الحرية والتفاهم وعلى السيولة في تبادل المعلومات بلا حدود، فقد استطاعت هذه الوسيلة أن تمكِّن الأفراد من القدرة على الاتصال مع بعضهم البعض، سواء أكانوا مجهولين أو معروفين من أي مكان في العالم؛ لكونها تتميز بطابع التعدُّد على مستوى الوسائط مثل الصوت والصورة والنص وغيرها.

ويلاحظ أن معظم المجتمعات الإنسانية مثل المجتمعات الإسلامية - تميل نحو التقنية بسبب تطورها السريع من حيث وظائفها، فالإنترنت يشكِّل إحدى أهم هذه التقنيات لأنه ينطوي على الترفيه والتواصل، والاستفادة العلمية، والاستزادة المعرفية. ويعتبر تأثير الإنترنت في المجتمعات المعاصرة أمرًا لا يصدَّق؛ لأنه قادرٌ على تغيير العديد من التمثلات والأفكار والاختيارات وحتى المعتقدات؛ ذلك أن الأفراد لهم ارتباطٌ بالمواقع الاجتماعية التي يتم عن

طريقها تبادل مجموعةٍ من الآراء والمواقف والتعليقات وأمورٍ أخرى. ومن بين مظاهر العلاقة التي تربط الأفراد بالمواقع الاجتماعية، نجد بالتحديد المواقع الخاصَّة بالحب والزواج التي أصبحت تختصر الوقت والمسافة بمجرَّد الضغط على الزر، والتي يستهلكها الأفراد بشكل متزايدٍ من أجل تحقيق أحلامهم ورهاناتهم.

وبالتالي، فنحن أمام ظاهرةٍ تطرح علينا العديد من الأسئلة من قبيل: ما هو الحب الافتراضي؟ ما هي طبيعة مواقع الحب والزواج؟ هل يساهم الإنترنت في تغيير العلاقات العاطفية؟ أو كيف يساهم الإنترنت في ديمقراطية العواطف؟... إلخ.

ومن أجل فهمٍ أكثر لظاهرة الحبِّ الافتراضي، سوف نعتمد في مقالنا على مجموعةٍ من الأُطر النظرية لعلماء الاجتماع مثل زيجمونت باومان (Zygmunt Bauman) وأنطوني جيدنز (Anthony Giddens) وأولريش بك (Ulrich Beck)؛ نظرًا لأهمية دراساتهم وبحوثهم العلمية حول ظاهرة الحب الافتراضي، وللمكانة العلمية التي يحتلونها في الحقل السوسيولوجي المعاصر. ويبقى الهدف هو الإجابة على بعض الأسئلة التي تم طرحها سابقًا. فالحبُّ الافتراضي شأنه شأن باقي الظواهر الاجتماعية التي تدعونا إلى الاحتياط والحذر من الانسياق وراء الأحكام المسبقة التي تطفو على السطح الاجتماعي.

أولًا: حول الحبِّ الافتراضي:

لا شكَّ أن الحديث عن الحب الرومانسي هو حديثٌ لا ينتهي، فهو حديث نشأ منذ وجود الإنسان على الأرض، وقد كان للحب دور مهمٌّ في أحداثٍ تاريخية مهمَّة، مثل تخلِّي أنطونيو عن عرش الإمبراطورية الرومانية من أجل محبوبته كليوبترا، واندلاع ما يسمَّى بحرب طروادة بين الإغريق والطرواديين بسبب هروب هيلين زوجة مينلاوس مع باريس.

إن الحبَّ الرومانسي كثيرًا ما يرمز في الحياة اليومية إلى الصراع والتنافس والتضحية، ويرمز أيضًا إلى كل ما هو خير وجميل، فالحبُّ هو شهوة الجمال كما يقال. ويرى شارلز ليندهولم[١] (Charles Lindholm) أن "الحب الرومانسي أكثر العلاقات حميميةً، فهو في قلب الآلية التي يستنسخ بها المجتمع المعاصر نفسه"[2]، فهو مرتبطٌ بالممارسة الجنسية التي تسمح للمجتمع

(١) شارلز ليندهولم (من مواليد ١٩٤٦) هو أستاذ جامعي في الأنثروبولوجيا في جامعة بوسطن.

(2) Paul Johnson (2005) : Love, Heterosexuality and Society (Routledge Advances in Sociology) ;Routledge : London and New York, P.13.

بـأن يحافـظ عـلى وجـوده. وكثـيرًا مـا يُفسر مفهـوم الحـب في التحليـل النفـسي بأنـه شـكلٌ مـن أشـكال الرغبـة البشريـة التـي ترتبـط بعمليةٍ غير واعيـة إلى حـدٍّ كبـير[3].

يتميـز الإنسـان أنـه حيـوان محـبٌّ بطبعـه، متعلِّـق بالـشيء، يرغـب في امتلاكـه. فالحـبُّ تعبـير عـن مجموعـة مـن الصفـات التـي تدفـع الإنسـان إلى الانجـذاب والتعلُّـق بالمحبـوب. يقـول م.هالبواشـز (M. Halbwachs): "يوجـد فينـا إنسـان اجتماعـيٌّ يترصـد الإنسـان المغرم"[٤].فـلا يوجـد إنسـان يخلـو مـن الحـب، فـكلُّ إنسـان إلا ويولـد معـه الحـب، مـما يسـمح لـه دائمًـا بـأن يحافـظ عـلى جـمال إنسـانيته.

إن الحـبَّ الرومانـسي ظاهـرةٌ كونيـة إن صـحَّ التعبـير؛ لأنـه يرتبـط بمصـير الأفـراد، حيـث يعـاش عـبره سلسـلة مـن التجـارب التـي ترتبـط بالآمـال والخيبـات. إنـه أيضًـا "لعبـة خطـيرة، وأخطـر مـا فيهـا أن يكـون المتحابـون ألعوبـةً بـين أيـدي القـدر"[٥]، عندمـا يدفـع بهـم إلى حـالات الجنـون والمـرض وربمـا الانتحـار؛ لأن الحـبَّ حالـةٌ مـن الانفعـالات والأفـكار والرغبـات والممارسـات التـي تـدور حـول المعشـوق أو الشـخص الـذي نحبُّـه. ويصـف ليندهـولم الحـبَّ بأنـه "البحـث عـن طـرقٍ للهـروب مـن عـبء الشـعور بالوحـدة، مـع تجنُّـب المواجهـة مـع الـبرودة والعـالم غـير المبـالي"[6].

يُعَـدُّ الحـب الرومانـسي بـين الثنـائي (الرجـل والمـرأة) رابطـةً عاطفيـة متميـزة، ويرمـز في المخيـال الاجتماعـي إلى الارتبـاط الدائـم والتضحيـة بـين الشريكـين. وهـو شـعور يتميـز بانتقـاء الشـخص المناسـب بوصفـه شـخصًا مميـزًا لا يمكـن تعويضـه بسـبب الـدور الـذي يلعبـه في حيـاة الشـخص الـذي يحبُّـه. والحـبُّ الرومانـسي في الأصـل يمثِّـل ميـولاتٍ بـين العشَّـاق، "ففـي التفاعـلات بـين القلـب المائـل وموضـوع ميلـه، نكـون أمـام جـماع لحظـاتٍ نوعيـة تتضاعـف فيهـا الطاقـة العشـقية"[٧]. كـما أن الحـبَّ الرومانـسي يهـدف إلى تحقيـق الـزواج؛ نظـرًا لأن هـذا الأخـير غايتـه تكْمُـن في الارتقـاء نحـو السـعادة الشـخصية للطرفـين مـن خـلال تلبيـة الحاجيـات النفسـية والاجتماعيـة والجسـدية لـكلٍّ منهـما.

---

(3) Ibid, P.25.

(٤) جـان دوفينيـو، تكـون الأهـواء في الحيـاة الاجتماعيـة، ترجمـة منصـور القـاضي، المؤسسـة الجامعيـة للدراسـات والنـشر والتوزيـع، بـيروت - لبنـان، ط١، ١٩٩٣، ص٧.

(٥) عبد الله زارو، سلطان العشق: مساهمة في سوسيولوجيا التعلق، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ٢٠١١، ص١٤.

(6) Paul Johnson (2005) ; Op.Cit, P. 78.

(٧) عبد الله زارو، سلطان العشق: مساهمة في سوسيولوجيا التعلق، مرجع سابق، ص٢٨.

ويرى علماء الاجتماع مثل أنطوني جيدنز وأولريش بك - أن العولمة تساهم في التغير الثقافي وتؤثر بشكل كبير في العلاقة العاطفية والحياة الزوجية، ويكْمُن جوهر التغير الثقافي في الأُلفة المتنامية والعاطفية بين الرجل والمرأة. فاختيار الشريك قد تغيَّر؛ نظرًا لأن الحبَّ أصبح معولمًا عن طريق وسائل الاتصال وخاصةً عبر ما هو افتراضي، حيث لم يعُد الحبُّ ينمو فقط بين الأشخاص الذين يعرفون بعضهم بعضًا إمَّا عن طريق العمل أو الأصدقاء أو النوادي أو الجمعيات... إلخ. مما يجعلنا نطرح السؤال التالي: كيف يمكن أن نفهم الحبَّ الافتراضي؟

إن فهمَ الحب الافتراضي يبقى مهمَّة نظرية وتجريبية معقَّدة تتطلَّب مجموعةً من التقنيات وأساليب التحقيق الجديدة؛ كما أن معظم النظريات الاجتماعية تتعامل بشكل غير مُرضٍ مع موضوع الحب الافتراضي؛ نظرًا لأنها لم تعرف ماذا تفعل بشأن "الافتراضي" في بُعْده الزمكاني؛ لأن الزمان هو الذي يعطي للأفراد والجماعات صفةَ الفاعل أو المحرِّك، والمكان هو المسرح الاجتماعي حيث تقوم فيه الأحداث والوقائع، وهو عامل أساسيٌّ في إنتاج المشاعر والعواطف والانفعالات وغيرها بين الأفراد والجماعات. بينما "في عالم البرمجيات الذي يسير بسرعة الضوء، يمكن قطع المسافات من دون وقتٍ بالمعنى الحرفي للكلمة؛ حيث انعدم الاختلاف بين عبارة (بعيد جدًّا) و(قريب جدًّا) ولم يعُد المكان يحدّ الحركة ولا آثارها، وتراجعت أهميته أو انعدمت تمامًا، وهكذا فقَد المكان قيمته الاستراتيجية"[٨] عندما ظهرت لنا أدوات الاتصال مثل الإنترنت.

لقد أصبح مفهوم "الافتراضي" يسكن الأفراد على نحوٍ غريب، فهو موجود في كل الخطابات اليومية، ويتم توصيفه عن طريق التقنيات الجديدة للاتصال، فهو تعبير عن الخيال بالدرجة الأولى؛ أي إنه عالم غير ملموس وغير حقيقي. كما أنه مفهوم يعبِّر عن الممكن واللايقين واللانهائي. حيث يمكن أن نضع كلَّ ما نتصوَّره ونتخيَّله عن المشاعر والأحاسيس والانفعالات في قنينةٍ افتراضية.

نستطيع أن نفهم الحبَّ الافتراضي على أنه "علاقة رومانسية تتكوَّن بشكل رئيس من التواصل المبرمج. على الرغم من حقيقة أن الشريك بعيدٌ من الناحية الجسدية وهو مجهول إلى حدٍّ ما، إلا أن هذه العلاقة تشبه - إلى حدٍّ ما - العلاقة العاطفية التي تتم دون اتصالٍ بالإنترنت، حيث يتم اختبار عاطفة الحب بشكل كاملٍ ومكثَّف كما هو الحال في علاقة غير متصلة بالإنترنت"[9]. فالحبُّ

(٨) زيجمونت باومان، الحداثة السائلة، ترجمة حجاج أبو جبر، تقديم هبة رؤوف عزت، سلسلة الفقه الاستراتيجي (٣)، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط١، ٢٠١٦، ص١٨١.

(9) Aaron Ben-Ze'ev (2004) : Love Online. Emotions on the Internet ; Cambridge University Press , P.4.

الافتراضي هو علاقةٌ عاطفية تجمع بين فردين من جنسين مختلفين (وأيضًا من الجنس نفسه، المثليين والسحاقيات أيضًا، فهؤلاء لهم صفحاتهم الخاصَّة وتواصلهم وعلاقاتهم أيضًا)، أو علاقة تجمع الفرد مع مجموعة من الأفراد المتصلين عبر شبكة الإنترنت من خلال الوسائل التكنولوجية مثل الهاتف الذكي والحاسوب، فهو عبارة عن علاقةٍ خارجة عن الحس الزمكاني عند الأفراد؛ أي إنه خارجٌ عن الواقع الملموس، ويتأسَّس على الخيال الذي "يحاول تقليد الواقع بالاعتماد على الأحاسيس، والمشاعر، والعواطف التي تجعل ما هو غائب حاضرًا"[10]. فاللقاءات العاطفية بين الأفراد على الإنترنت تقوم على قوة الخيال، وتسعى إلى تشكيل قيمٍ استباقية حول الحاضر والمستقبل.

إن الحبَّ الافتراضي هو خيال عاطفيٌّ يسعى إلى تقريب المسافة بين الشريكين، ويهدف إلى تعويض الواقع عبر ربط الشريكين على مستوى الخيال للتعبير عن مجموعةٍ من الوقائع والأحداث؛ لأن "الخيال هو قدرة مقصودة تشير إلى أحداث غير موجودة - أو على الأقل تلك التي نؤمن بها أن تكون موجودة"[11]. كما أن الحبَّ الافتراضي ليس صفةً موروثة، بل هو بناء اجتماعيٌّ يتغيرَّ بحسب طبيعة أنماط الحياة والالتزام الأخلاقي للمجتمعات البشرية. إنه قائمٌ على طاقة انفعالية تحدث في ما وراء العالم غير الافتراضي، وتكون مرغوبةً كثيرًا عندما ينظر إليها الأفراد على أنها ملائمةٌ لهم لاستهلاكها.

يقوم الحبُّ الافتراضي على التبادلات الاجتماعية التي ترتبط بالانفعالات العاطفية بين الشركاء؛ إذ يركِّز على معايير خاصَّة بما هو مستحق وما هو واجب وما هو مرفوض. ويساهم في بناء علاقاتٍ متساوية بين الشركاء في عالم غير متساوٍ حتى يشعروا بالرضى النفسي. ذلك أن الانفعالات العاطفية التي تمارس بالإنترنت تخضع إلى معايير مرتبطة بالنوع الاجتماعي والطبقة والفروق العرقية والسلطة وغيرها.

إن الحبَّ الافتراضي هو ظاهرة "من تبعات العولمة، حيث اللانهائية في إمكانية إيجاد الشريك الذي يمكن تقييمه عن طريق العقل طبقًا لمعايير براجماتية"[١٢]. وما يميز هذه الظاهرة أنها تتجاوز حاجز الزمان والمكان، فالحبُّ يتخذ من الإنترنت وسيطًا للتعارف وربط العلاقات الحميمية بينهم. ذلك أن "الإنترنت يغيرِّ التصنيف الاجتماعي لعلاقات الحب، حيث يفصل بين الحب والجسد، أي بين الحب والشخص، ومن خلال ذلك تتراءى

(10) Wilasinee Pananakhonsab (2016) : Love and Intimacy in Online Cross-Cultural Relationships. The Power of Imagination ; Palgrave Macmillan, P.10.

(11) Aaron Ben-Ze'ev (2004) ; Op.Cit, P.78.

(١٢) أولريش بك وإليزابيت بك - غرنزهايم، الحب عن بعد: أنماط حياتية في عصر العولمة، ترجمة حسام الدين بدر، منشورات الجمل، بيروت - لبنان، ط١، ٢٠١٤، ص٤١.

لنا مفارقة تتخذ شكلًا واقعيًا، والتي تكْمُن في كيفية أن يكون ثمة مكانٌ للتآلف والمودَّة بين أشخاصٍ لا يعرفون بعضهم بعضًا"(١٣).

من خلال هذه النظرة السريعة حول الحب الافتراضي، نرى أنه يلعب دورًا مهمًّا في تشكيل الثنائيات (المتزوجين، وغير المتزوجين)، حيث يتخذ عدَّة أشكالٍ من اللقاءات: إمَّا مرتبطة بالمصادفة، وإمَّا عبر مصالح ورهاناتٍ مدروسة بين الثنائيين. فهو عبارة عن علاقة عاطفية شبكية بين الرجل والمرأة. الحاجة منه هي أن يحقِّق في المستقبل نوعًا من الأُلفة والمعاشرة بين الثنائي أو الرعاية الزوجية ورعاية الأبناء بعد الإنجاب، وأن يساهم في تكوين أُسرٍ جديدة معولمة. وذلك حسب الظروف الاقتصادية والسياقات الاجتماعية التي تتحكَّم في الثنائي.

ثانيًا: من الحبِّ الصلب إلى الحبِّ السائل:

يعبِّر مفهوم السيولة عند زيجمونت باومان عن وضعية المجتمعات الحديثة التي عرفت الانتقال من الأنساق التقليدية التي كانت صلبةً وثقيلةً وأصبحت في عصر التطوُّر والتقدُّم أكثر تفكُّكًا بسبب ضغط الحداثة والعولمة. حيث كانت "أولى المواد الصلبة التي قرَّرت الحداثة إذابتها، وأولى المقدَّسات التي قرَّرت تدنيسها - تمثّل في الولاءات التقليدية والواجبات والحقوق المعهودة التي تغل الأيدي، وتقيّد الأرجل، وتعوق الحركة، وتكبح زمام المبادرة والإقدام"(١٤).

لقد تميزت الروابط العاطفية - مثل الحب - في حقبٍ تاريخية سابقة بأنها كانت خاضعةً لسلطة الأُسر والعادات والتقاليد الخاصَّة بالطبقة الاجتماعية، فلم يكن الأفراد قادرين على التحرُّر من تلك السلطات التي كانت تفرض عليهم اختيار الشريك الذي يناسبهم. يقول إريك فروم (Erich Fromm): "لم يكن الحبُّ في العصر الفيكتوري - كما كان في عددٍ كبير من الحضارات ذات التراث - تجربةً شخصية تلقائية مما يفضي حينذاك إلى الزواج. بل بالعكس، لقد كان الزواج توثقه تقاليد - إمَّا عن طريق الأُسر المحترمة أو عن طريق الخاطبة، أو دون عونٍ مثل هذه الوسائط: لقد كان يتم على أساس المقتضيات الاجتماعية، وكان مفروضًا في الحب أن ينمي ما سبق أن أتمَّه الزواج"(١٥). وإذا كان الرجل قد تحرَّر باكرًا من هذه

---

(١٣) المرجع نفسه، ص٤١.

(١٤) زيجمونت باومان، الحداثة السائلة، مرجع سابق، ص٤٤.

(١٥) إريك فروم، فن الحب: بحث في طبيعة الحب وإشكاله، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد، دار العودة، بيروت - لبنان، ٢٠٠٠، ص١٢.

القواعد منذ بداية القرن العشرين، فإن تحرُّر المرأة من هذه القواعد كان متأخرًا حتى حدود الستينيات.

وتاريخيًّا - حسب أولريش بك - لا يُعَدُّ هذا شيئًا جديدًا، فقد مارست طبقة النبلاء والأرستقراطيين (وكذلك الطبقة الوسطى الغنية في أوروبا) صورًا قديمة من هذا النمط من الحب والزواج حتى حدود أواخر الستينيات من القرن العشرين. "فقد كان الرباط الأُسري هو الذي ينظِّم عملية اختيار الشريك، ويضعها في مسارها الصحيح وفي مكانها الاجتماعي المناسب"(١٦). ولم يُعرف هذا التغير وهذا الانتقال نحو التحرُّر من الروابط الأُسرية والعادات والتقاليد إلا مع الحركات الطلابية في سنة ١٩٦٨ بأوروبا والحركات النسائية التي رفعت نداءات وشعارات تهدف إلى التحرُّر من السلطة الذكورية، الشيء الذي دفع إلى أن يكون التعارف بين الشريكين متحرِّرًا ومرتبطًا بأماكن ومجالاتٍ متعدِّدة من أجل اللقاء بين الرجل والمرأة. كما لعبت الحياة المهنية عند الأفراد دورًا مهمًّا في تغيير العلاقات بين الرجل والمرأة، حيث لم تعد الوظيفة آمنةً وتساهم في استقرار الأفراد، نتيجة تراجع الدولة الاجتماعية عن تأمين مستقبل المجتمع على المستوى الاجتماعي والاقتصادي، بسبب بروز ما يسمَّى بعقود العمل.

يهدف الحبُّ الصلب عند باومان إلى إيجاد علاقاتٍ مشتركة يحقِّق فيها الشريكان (الرجل والمرأة) مصالحهما المشتركة، كي يتمَّ الحفاظ على وجودهما الاجتماعي والاقتصادي، ويحميا بعضهما بعضًا من الأزمات والإكراهات التي يمكن أن تؤدي بهما إلى الفراق. فقد كان كلٌّ من الرجل والمرأة يدرك أن بقاءه يعتمد على الآخر، وأنه لا بدَّ من الاعتماد المتبادل بينهما، والنظر إلى المستقبل بعقلية (طويلة الأمد). غير أن الحبَّ في الحالة السائلة جاء بعقلية مخالفة، وهي عقلية (قصيرة الأمد). "فالزيجات القائمة على مقولة (تعاهدنا ألا يفرقنا إلا الموت) صارت موضةً قديمة تمامًا، وصارت عملةً نادرة، فلم يعُد الشريكان يتوقعان البقاء معًا طويلًا"(١٧).

أصبح الحبُّ السائل بين الشريكين يقوم على مبدأ "المعاشرة" بدلًا من الزواج والاستقرار، وأصبحت الاختيارات بين الشريكين تقوم على العشوائية عوض التخطيط العقلاني، كما أصبح التضامن بين الشريكين قائمًا على المصالح والرهانات الشخصية.

(١٦) أولريش بك وإليزابيت بك - غرنزهايم، الحب عن بعد، مرجع سابق، ص٨٥.

(١٧) زيجمونت باومان، الحداثة السائلة، مرجع سابق، ص٢١٥.

إن ما يميز الحب السائل أنه يفكُّ الارتباط العاطفي القائم على الزواج بين الشريكين، ويعمل على تحريرهما من القيود التي يمكن أن تضعهما في مصيرٍ لا يحبذانه. فالحبُّ السائل يدفعهما إلى الاستقلالية عن الآخر، ويمنحهما إمكانية إنهاء العلاقة في أية لحظة، وفي أيِّ ظرفٍ ومن دون أسباب. وهو ما يجعل من "المعاشرة دون زواج (واختبارها وارتقاب مآلها) تكتسب جاذبيةً مفقودة في روابط المصاهرة. فمقاصدها متواضعة، ولا تؤخذ فيها المواثيق ولا العهود، وإذا أُخذت فهي ليست مقدَّسة، ولا تفرض قيودًا ولا أغلالًا، ولا تطلب إشهارًا ولا كاهنًا يباركها"(١٨). كما أن المستوى الذي حقَّقته المعاشرة في سهولة الحركة والانتقال بين الأماكن ساهم في انطفاء الرغبة والحاجة إلى البقاء والاستمرار بين الشريكين؛ فالمعاشرة لا ترتبط بحدودٍ مكانية وزمانية مثل الزواج الذي يفرض البقاء والاستمرار إلى أمدٍ طويل بين الشريكين، والسبب أن المعاشرة في الأصل ليست سوى علاقة مؤقتة عابرة تفرض على الشريكين الاتفاقَ فقط في حدود الممارسة الجنسية.

يعمل الحبُّ السائل على تحرير الجنس من الروابط الصلبة؛ لأنه يهدف إلى تكوين علاقةٍ عابرة غرضها تحقيق اللذة والمتعة بين الشريكين، وفي تحويل كلٍّ منهما إلى مستهلك. وقد يكون تحرير الجنس عند البعض أمرًا جيدًا، وربما مقبولًا ورائعًا تمامًا، "ولكن المشكلة تكْمُن في كيفية تثبيته في مكانه حين تحريره من القوة التي تحافظ على استقراره، وفي كيفية الاحتفاظ بشكله حين تختفي الأُطر، فما أجمل السفر في خفَّة! ولكن ما أشقَّ السفر من دون بوصلة ! وما أجمل التغيير! ولكن ما أزعج التقلُّب السريع!" (١٩).

يستنتج باومان أن العلاقات العاطفية التي تتميز بالقرب الافتراضي أصبحت أكثر أمنًا وصدقًا من الروابط الحقيقية، كما أن هذا النوع من العلاقات "ينذر بانفصال نهائيٍّ بين البُعْد الفيزيائي والبُعْد الوجداني"(٢٠). فالعلاقات العاطفية القائمة على القرب الافتراضي تمثل أكثر نموذجٍ يمكن ملاحظته في المجتمعات المعاصرة؛ لأنه يعتمد على مساندة وسائل الاتصال (الهاتف المحمول والحاسوب) المرتبطة بشبكة الإنترنت، والتي كانت سببًا في نشأة العديد من العلاقات العاطفية التي تتميز بالهشاشة، فقد أصبحت هذه العلاقات العاطفية تتميز بأنها ذات صبغةٍ استهلاكية، كونها تقوم على توليد الحاجات النفسية والجسدية لدى الأفراد، ورمي كل ما هو قديم في سلة المهملات عن طريق كبسة زر (Delete) بما فيها الروابط والعلاقات العاطفية.

---

(١٨) زيجمونت باومان، الحب السائل: عن هشاشة الروابط الإنسانية، ترجمة حجاج أبو جبر، تقديم هبة رؤوف عزت، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت - لبنان، ط١، ٢٠١٦، ص٦٥.

(١٩) المرجع نفسه، ص٨٣.

(٢٠) المرجع نفسه، ص١٠٠.

ثالثًا: مواقع التعارف على الإنترنت:

يستطيع أعضاء الجماعة الافتراضية اختصار المسافة في التواصل عبر إرسال الرسائل الإلكترونية، وتجاهلها وعدم قراءتها وحذفها بضغطة زر. فالجماعة الافتراضية تساهم في التخفيف من ضغط المجتمع غير الافتراضي الذي يلزم الأفراد أن يعيشوا مشتركين مع بعضهم البعض؛ نظرًا لأن الجماعة الافتراضية تتميز بمعايير وأدواتٍ خاصّة بالحذف أو الاختفاء عن الأنظار، حيث يستطيع الأفراد أن يعيشوا منفصلين عن بعضهم البعض حتى وإن كانوا ضمن حيز جغرافيٍّ واحد. ولا ننسى أن مفهوم الجماعة الافتراضية هو "أحد العناصر المتكرِّرة للخطاب الذي تضعه الثقافة المعلوماتية حول نفسها. ويقوم بدوره على الدوام في كل الحالات بواسطة البوابات التي تقدِّم خدماتٍ من نوع الدردشة، وقوائم وميادين للبث، وبريد إلكتروني..." (٢١).

تُعرف مواقع التعارف بكونها أحد أشكال "الجماعات الافتراضية" التي يشكِّلها مجموعة من الأفراد يشتركون ويتفاعلون في شكل علاقاتٍ تكنولوجية، ويتبادلون الآراء والمواقف فيما بينهم، وبحرية مطلقة دون قيودٍ أو مراقبة، بخلاف المجتمع الواقعي غير الافتراضي الذي يتجسَّد في تفاعل الأفراد حينما يلتقون على أرضٍ مادية محسوسة، فما يميز العالم الواقعي المادي أنه يحمل انطباعات دافئة عبر حضور الجسد والروح معًا.

وتمثِّل مواقع التعارف أشكالًا من الوسائط الإعلامية التي تهدف إلى تحقيق التضامن العضوي بين أفرادها، وهي مواقع تسعى إلى تعزيز حرية الاختيار، فكلُّ فرد إلا ويمتلك نوعًا من الرغبات والاختيارات. فمن ضمن مميزاتها أنها تتأسَّس على صناعة الرغبات، حيث تسعى إلى إثارة الرغبات عند مستخدم الإنترنت عبر مختلف أشكال الربط مثل (الصورة - الصوت - النص)، إلخ. ويتعزَّز الإغراء من خلال عملية تكرار الإعلانات على أبواب المواقع عند الولوج إليها. فهي تقوده "نحو الشريك أو الشريكة المثالية، بينما يمكنه أن يختار خلال الدردشة، أو حتى يبتكر عند الاقتضاء قناةً تتناسب هنا أيضًا مع شخصيته ومع توقعاته الخاصَّة" (٢٢). هكذا يصبح الفرد الذي يستخدم الإنترنت محاصرًا وخاضعًا لتلك الإعلانات التي يتم نشرها. فمواقع التعارف تجسِّد لنا ما نسميه بـ"الأسواق" التي تقوم على منطق الاستهلاك بهدف تحقيق الربح عند الولوج إليها.

(٢١) فيليب ريجو، ما بعد الافتراضي: استكشاف اجتماعي للثقافة المعلوماتية، ترجمة عزت عامر، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٩، ص١٢٢.

(٢٢) المرجع نفسه، ص١٢٣.

إن ارتباط الشريكين عبر مواقع التعارف ليس ناتجًا عن الصدفة، بل هو مرتبطٌ بعملية ابتكار اجتماعيٍّ تنجزها المواقع الخاصَّة بالحب والزواج، ما يعني أن علاقة الشريكين لم تأتِ بطريقة عشوائية، فهذه المواقع الافتراضية عبارة عن أمكنة تحدِّد للشريك المجالَ الذي يمكن ألا يخضع للعشوائية. حيث تقوم بعرض البيانات التي تتوافق مع الميولات والاهتمامات والخصائص المميزة للشركاء. إضافة إلى أن الإنترنت يساهم في تغيير حالة الحب؛ نظرًا لأربع مميزات: "فهي حالة تتيح أولًا إمكانية عدم التلاقي الجسدي للشريكين، وثانيًا تتيح عدم الإفصاح عن هوية المتصلين، وثالثًا تفتح المجال أمام الخيال الجامع لينطلق، ورابعًا تمكِّن من تحقيق ميزة محاولة التحسين المستمر وإيجاد الأفضل"[٢٣].

ومن الواضح أن نجاح مواقع التعارف يتوقَّف على إدخالها تطبيقاتٍ مثل: المدونات، واستخدام الصور، وكاميرا ويب الفيديو، والرسائل الفورية، بالإضافة إلى القدرة على إضافة الأصدقاء وكتابة الشهادات. إذ تتميز هذه التطبيقات بأنها تساهم في زيادة الاتصال وتعمل على تعميق التواصل بين الأفراد. هذا يعني أن مواقع التعارف تهتمُّ كثيرًا بتعزيز علاقات الحبِّ بين الناس، ذكورًا وإناثًا، صغارًا وكبارًا؛ لأن "الفضاء الإلكتروني هو مساحةٌ حقيقية توفِّر بيئةً افتراضية يتمتَّع فيها الأشخاص الحقيقيون بتفاعلاتٍ فعلية مع أشخاصٍ حقيقيين آخرين"[24]. ومع ذلك، فإن هذه المواقع توفِّر المزيد من الوسائل لتحسين الخداع؛ لأنها غالبًا ما تكون بعيدةً عن المراقبة، الشيء الذي يجعلها أحد أهم الفضاءات التي ينتشر فيها الخداع والتحريف.

وغالبًا ما تفرض مواقع التعارف على المستخدمين أن يخلقوا شخصياتٍ مثيرة وجذابة ومثالية من أجل تسويق أنفسهم أمام الآخرين، وأن يتمثلوا بما يرغبون به الآخرين: "أي يتظاهرون بالأشياء التي يحبونها في الحديث وفي التعريف بأنفسهم وبآرائهم وأفكارهم وغير ذلك. وليس شرطًا أن يكونوا كما هم في واقع الأمر. وهذا لا ينفي أن كثيرًا منهم يحاول أن يكون صادقًا في كل ذلك. ولكن الأمر المشترك في معظم المتمثلين افتراضيًّا هو تمثلهم بما يريدون من الآخرين أن يروهم به. إنهم غالبًا لا يريدون أن يُروا بما لا يرغبون، في الكلام، والآراء، والرغبات، والمعلومات الخاصة والعامة عن أنفسهم"[٢٥].

(٢٣) أولريش بك وإليزابيت بك - غرنزهايم، الحب عن بعد، مرجع سابق، ص٨٧.

(24) Wilasinee Pananakhonsab (2016) ; Op.Cit, P.11.

(٢٥) علي محمد رحومة، علم الاجتماع الآلي: مقاربة في علم الاجتماع العربي والاتصال عبر الحاسوب، سلسلة عالم المعرفة، العدد (٣٤٧)الكويت، يناير ٢٠٠٨، ص١٤٥.

إذا كانت هذه المواقع تهدف إلى تحقيق السعادة عند الأفراد من خلال اكتشاف علاقاتٍ جديدة، فإنها لا تخلو من سلبياتٍ مرتبطة بتعزيز حبِّ الذات وتضخيمها، خاصةً إن كانت هذه العلاقات تقوم على تحقيق اللذة عندهم. فالشخص الافتراضي الذي ينظر في هاتفه أو في حاسوبه كلَّ يوم، ويتصفح مواقع التعارف مثل (الفيسبوك - التويتر) دون الاكتراث بالناس الذين يحومون من حوله، هو شخصٌ يجعل من غاية وجود الناس هو إسعاد نفسه وتحقيق رغباته الأنانية. فالنظر إلى الناس باعتبارهم أدواتٍ لتحقيق رغباتٍ ذاتية يمثِّل في حقيقة الأمر إنكارًا للقيم والمشاعر المرتبطة بالصداقة والحب وغيرها. وربما هذا ما يدفع الشخص الافتراضي إلى تنويع لائحة أصدقائه وتغييرها كلما شعر بعدم إشباعٍ لحاجاته النفسية وغيرها.

وعلى العموم، فإن مواقع التعارف على الإنترنت تتميز بمجموعة من الخصائص أبرزها:

- أنها مكان مفتوح للقاء دائمًا طوال اليوم، حيث تمكِّن الأفراد من الولوج إليها في أيِّ وقت، فهي لا تحتاج إلى تحديد المواعيد بين الأفراد الذين يستخدمونها، كما أنها لا تتطلَّب جهدًا في الولوج إليها.

- المرونة في الاتصال والفورية في التواصل؛ إذ يستطيع الأفراد الاتصال في أيِّ وقت ومن أيِّ مكان في العالم والتواصل عبر التطبيقات التي توفرها مثل البريد الإلكتروني، وغرفة الدردشة... إلخ.

- الخصوصية، فهي مواقع توفر للأفراد مجالهم الخاصّ للتحدُّث والنقاش.

- يمكن أن تحقِّق لأصحابها الشهرة والربح المادي عن طريق التسويق الإلكتروني.

ويمكن القول إن مواقع التعارف على الإنترنت تُعتبر - بلا شكٍّ - مواقعَ مؤثرة في الحياة اليومية؛ لأنها مواقعُ لها تأثير كبير في الذوات الافتراضية، من حيث الشعور والإحساس الذي يتم صنعه رقميًّا عن طريق المواد المكتوبة والمواد المرئية التي يتم عرضها عبر "الويبكام" webcam أو الصور الفوتوغرافية. وهو ما يجعل من الاتصال بين الأفراد له معنى لديهم.

رابعًا: ديمقراطية العواطف في زمن العولمة:

يتفق علماء الاجتماع على أن العولمة تلعب دورًا مهمًّا في التحولات الاجتماعية، فهي تعمل على تغيير القيم والمواقف والاختيارات، وتدفع الناس إلى البحث عن الاستقرار الاجتماعي والنفسي والعاطفي، وعلى كسر حاجز الزمان والمكان. ويقول جيدنز في هذا الصدد: "من بين جميع التغيرات المطردة في العالم، لا تغيُّر يكتسي أهميةً كبرى مثل التغيُّر الذي يحدث في حياتنا

الشخصية؛ أي في العلاقات الجنسية، والعلاقات الاجتماعية، والزواج، والعائلة"[٢٦]. فالعولمة تقوم باستبدال الأحاسيس الدافئة الخاصَّة بالعلاقات الاجتماعية بأحاسيس باردة من خلال الاتصال الرقمي، وتساهم أيضًا في تعزيز ما يسميه جيدنز بـ"ديمقراطية العواطف"؛ إذ إنها تعطي الأفراد القدرة على نسج العلاقات، وفي الآن نفسه إمكانية إلغاء العلاقات العاطفية بين الشركاء.

إن سيولة الوصول إلى الإنترنت أدت إلى تزايد أعداد الناس بسرعة من أجل إقامة علاقاتٍ عاطفية عابرة للحدود، هذا النوع من العلاقات كثيرًا ما شجَّع الأفراد في دولٍ عربية وفي أوروبا الشرقية إلى اتخاذ قرار الزواج من الآخر بهدف الهجرة وتكوين أُسر معولمة. ويؤكد عالم الاجتماع الألماني أولريش بك أن أحد الأسباب الرئيسة التي تدفع الفرد إلى الزواج عبر الإنترنت لا يكون نابعًا من الحب في الأصل، بل الرغبة في التجوال والهروب من الفقر واليأس المسيطر على بلد المنشأ[٢٧].

ومع تزايد إمكانية الوصول إلى الإنترنت، تبرز مواقع الحب والتزاوج كقنواتٍ مهمَّة للنساء في دول العالم الثالث لمقابلة شركاء أجانب، بما في ذلك الرجال الغربيون من أجل الهجرة، وذلك بهدف تخليص عائلتهنَّ من شبح الفقر، فهذه المواقع تمثل أدواتٍ أساسية للبحث عن علاقاتٍ جديدة بين الثقافات. وما يميز النساء المهاجرات عندما يلتحقن ببلد المهجر، أنهنَّ يلعبن دور الوسيط في عملية الهجرة، حيث يقول أولريش بيك:

"غالبًا ما تسعى النساء - اللاتي تمكنَّ عبر الزواج من الهجرة إلى الغرب - إلى توفير فرص عملٍ للنساء الأخريات من بنات أوطانهن، وبهذا يمكّنهن من اللحاق بهم في الغرب، ويتمكن الكثير من هؤلاء المهاجرات مؤخرًا من التعرُّف إلى رجال غربيين، مما يستتبع الزواج منهم. وأحيانًا تقوم المهاجرات الأوائل - الممهدات الطريق لمن بعدهنَّ - بدور وسطاء الزواج بشكل مباشر، حيث يبحثون في محيطهم عمَّن يناسب بنات بلدتهم الأصلية من الرجال الغربيين..." [٢٨].

وإذا كان الحبُّ والزواج عبر مواقع الإنترنت يرتبطان في الماضي أساسًا بدوافع اقتصادية أو دوافع لها علاقة بالهجرة، فإن بعض الدراسات تبيِّن عكس ذلك، مثل الدراسة التي قدَّمتها

(٢٦) أنطوني جيدنز، عالم جامح: كيف تعيد العولمة تشكيل حياتنا، ترجمة عباس كاظم وحسن ناظم، المركز الثقافي العربي، بيروت - لبنان، ط١، ٢٠٠٣، ص٨٣.
(٢٧) أولريش بك وإليزابيت بكغرنزهايم، الحب عن بعد، مرجع سابق، ص١٤٠.
(٢٨) المرجع نفسه، ص١٥٨.

الباحثة ويلاسيني باناناخونساب[٢٩] (Wilasinee Pananakhonsab)، فقد وجدت أن جميع النساء اللواتي أجريت معهم المقابلات قد قابلن شركاءهم شخصيًّا في تايلاند. إذ لم يكن السبب الرئيس في هذا هو الحصول على تأشيرة للسفر إلى بلد غربي، أو على موارد مالية، لكنه كان أيضًا مرتبطًا ببناء الثقافة الرومانسية وخصلة العلاقات الافتراضية[30] التي تم تشكيلها بين الشركاء.

إن تفسير الحبِّ الافتراضي من خلال ربطِه بدوافع اقتصادية هو تفسيرٌ غير دقيقٍ وغير كافٍ؛ لأنه يتجاهل التنوع الموجود بين الناس، كما يتجاهل تنوع الاختيار بين الشركاء. إذ هناك من الناس من يقوم بتقييم الشركاء المحتملين على مستوى قدرتهم على الوفاء ليس فقط من حيث الاحتياجات المادية، ولكن أيضًا ما يتعلَّق بالاحتياجات العاطفية التي يمكن أن يقدموها. إلى جانب أن العلاقات العاطفية عبر الإنترنت "تمنع الناس من الاعتماد على المظهر الجيد عند تقييم الآخرين، وبالتالي تجنُّب المزايا غير المبررة التي يتم منحها عادةً لأشخاصٍ جذابين؛ هذه العلاقات تمكِّن الناس من التعرف إلى بعضهم البعض دون الحاجة إلى تحمل العبء الثقيل للجاذبية النمطية"[31].

ويلاحظ أن الحب الافتراضي يخضع إلى سوقٍ قائمٍ على العرض والطلب، حيث تسعى بعض مواقع الحب والزواج إلى التأكيد على الشريكين قبل اللقاء بينهما أن يلتزموا بمجموعة من الشروط مثل توفير العمل والسكن والحضانة، ويفترض في أحد الشريكين أن يتوفر على أجر شهريٍّ مرتفع حتى يستطيع تلبية متطلبات الحياة الزوجية. هذا النوع من "أسواق الارتباط" أشبه بعقد عملٍ يمكن فسخه عندما يرغب الشريكان في ذلك. فمن مميزات هذا النوع من السوق أنه يحاول أن يؤكِّد على انتصار العلاقات الاجتماعية غير المباشرة على العلاقات المباشرة؛ لأنها علاقاتٌ تُدار من خلال ذاتها، حيث تتميز بالاستقلال عن القواعد والأُطر التقليدية مثل الأسرة.

ويرجع تفضيل مجموعة من الأفراد لهذا النوع من طرق الزواج إلى عاملٍ مهم يتمثَّل أساسًا في الانقلاب على التقاليد والعادات القديمة، فأجيال اليوم من الشباب تحمل آراءً خاصَّة بها تعبِّر عن القيم الثقافية التي تحبذ الزواج من المختلف. وينكشف ذلك من خلال بحثهم عن وسائل أخرى من أجل تحقيق أهدافهم وتطبيق مشروعاتهم في الحياة، سواء فعلت ذلك

(٢٩) ويلاسيني باناناخونساب Wilasinee Pananakhonsab هي محاضرة في علم الاجتماع بجامعة ثاماسات Thammasat، تايلند. تشمل اهتماماتها البحثية العائلةَ والعلاقات الحميمية والألفة عبر الإنترنت.

(30) Wilasinee Pananakhonsab (2016) ; Op.Cit, P. 121.

(31) Aaron Ben-Ze'ev (2004) ; Op.Cit, P. 162.

حقيقة أو أوهمت نفسها بفعله. فعالم اليوم يتميز بأنه يفرض على الأجيال أن يكون لها أسلوبُ حياةٍ مستقل - جزئيًّا بالطبع - عن عالم الكبار، وغير خاضعٍ لمعايير الأجيال التقليدية وقيمها. "ولا عجب أن القرب الافتراضي يحظى بتفضيل، وبممارسة أكثر حماسةً وحيويةً من أيِّ شكل آخر للقرب. فالوحدة التي يعانيها الأفراد خلف الباب المغلق للغرفة الخاصَّة مع هاتف نقَّال في متناول اليد، تبدو أقلَّ خطورةً وأكثر أمانًا من تشارك الأرض المشتركة للأسرة"(٣٢).

وتساهم الهواتف النقالة المرتبطة بالإنترنت في التواصل بين الأفراد الذين يعيشون بعيدًا عن بعضهم البعض. فهي وسيلة ممتازة لتحقيق التواصل، فما يميز هذه الوسائل أنها تتضمَّن علاقاتٍ عاطفية مشتركة تقوم دائمًا على ثنائية الاقتراب والابتعاد وعلى الحقيقة والخيال. فالحياة العاطفية لم تعُد مرتبطةً بالمكان، فالعشاق لا يعيشون في مكانٍ واحد بل يرتحلون كلَّ يوم بمساندة وسائل الاتصال التي تتجاوز الحدود، والتي تعمل على تقريب المسافات بينهم. وكما يقول أولريش بيك: فإن "الحياة في مكانٍ لم تعُد تعني التعايش معًا، والتعايش معًا لم يعُد يعني العيش في المكان نفسه. والشكل الرئيس للحياة الخاصَّة لم يعُد حياة التسكع، وإنما حياة بالمجيب الهاتفي، وبيانات الحاسبات الإلكترونية..." (٣٣).

تتجه بعض أماكن التعارف مثل أماكن العمل والنوادي والحانات إلى أن تصبح من الطراز القديم، فلم تعُد هذه الأماكن مناسبةً للتعارف واللقاءات بين الشركاء، مما جعل العديد من الأفراد يبتعدون عنها تلقائيًّا بسبب الدور الذي يلعبه الإنترنت في الحياة اليومية، كما لم يعُد الأفراد يمتلكون مهارات الحوار والجرأة في الحديث مع الجنس الآخر ومواجهته إلا عن طريق مواقع التعارف؛ خوفًا من العواقب التي يمكن أن تحصل بينهم. نظرًا لأن "للتعارف عن طريق الإنترنت ميزات تفتقر إليها اللقاءات الشخصية، ففي الأخيرة إذا انكسر الثلج، فإنه يظل منكسرًا أو يذوب مرة وللأبد، ولكن الأمر مختلف تمامًا في حالة التعارف عن طريق الإنترنت"(٣٤)؛ لأنه يسمح للفرد بإمكانية تغيير الأفراد وحذفهم إلى الأبد بكبسة زر. ويقول باومان: "لم يكن التعارف عن طريق مواقع الإنترنت لينجح بنفسه لولا أن وجد عونًا ودفعًا من حذف أهم الشروط الضرورية بقائمة الشراكة: الارتباط الدائم، والالتزام الدائم، والتعهد الدائم بالوجود من أجل الشريك متى كان في حاجة إلى ذلك"(٣٥). وبالتالي،

---

(٣٢) زيجمونت باومان، الحب السائل، مرجع سابق، ص١٠٣.

(٣٣) أولريش بيك، ما هي العولمة؟ ترجمة أبو العيد دودو، منشورات الجمل، بيروت - لبنان، ط٢، ٢٠١٢، ص١٢٦.

(٣٤) زيجمونت باومان، الحب السائل، مرجع سابق، ص١٠٤.

(٣٥) المرجع نفسه، ص١٠٥.

فإن ميزة العلاقات الافتراضية أنها تبدأ وتنتهي افتراضيًّا، فهي تعتبر من أكثر الوسائل المفضلة لدى الأفراد في إنهاء أيِّ علاقة اجتماعية وخاصةً العاطفية.

ويظهر في العديد من مواقع التعارف على الإنترنت أنها تقدِّم الشركاء كسلع غير متكافئة على أساس العرق والطبقة والجنس، حيث يتم تصوير النساء الغربيات على أنهنَّ متواضعاتٌ وجميلات وماديات، وأن الرجال الغربيين أوفياء وأغنياء ورومانسيون. بينما النساء العربيات محافظات وسلبيات وتقليديات، في حين أن الرجال العرب يتميزون بالعنف والتسلُّط في ممارسة الحب على النساء.

هذا الأمر يسمح للأفراد أن يبحثوا عن شركاء أفضل لحياتهم عبر تحديد المعايير الشكلية وتقييم المميزات الفكرية والنفسية لدى الرجل والمرأة، مثل تفضيل الأذكياء والأقوياء والشقراوات والعفويين والبسيطات والنشيطين، إلخ. وقد أدى ذلك إلى انتشار ما يسمَّى بالعلاقات التجريبية كمرحلة اختبار وتجربة للوصول إلى الانسجام بين الثنائي. حيث إن هذه العلاقة تتسم بأنها "وحدة مبنية على التواصل العاطفي أو الأُلفة intimacy"(٣٦). وفي حالة إذا لم يُمنح أي من الثنائي مساحة كافية للاستقلال، فقد يبدأ الشعور بالاختناق والاستياء. وسيحاول الشخص المقيَّد بهذه الطريقة خلق بعض مساحات التنفُّس عن طريق إنشاء مسافة (عاطفية) في العلاقة. ولكن لأن الشريك غير آمنٍ ولا يمكن الاحتفاظ به، فإن استراتيجية الابتعاد العاطفي قد تسبِّب المزيد من القلق.

إن الأفراد الذين يسعون إلى الحب ويختارون الزواج عبر ما هو افتراضي، يتميزون ببحثهم عن شركاء يحملون صفاتٍ متقاربة ومنسجمة معهم إلى أقصى الحدود. كما نجد أن مجموعةً من الأفراد يقومون بعرض أنفسهم من خلال إظهار صفاتهم ومميزاتهم التي يمكن أن تغري الجنس الآخر، محاولين الكشف عن أنفسهم بشكل واضح. فالرجال يقومون بإظهار مهنتهم وثروتهم وإعلانها، بينما تقوم النساء بإظهار زينتهنَّ وجمالهنَّ الخارجي أولًا. أما بالنسبة إلى مسألة الكفاءة والأخلاق، فهي تأتي خلال مرحلة التعارف أو في أثناء دخولهنَّ في العلاقة.

يتبيَّن أن الأدوار التفاعلية الحميمية على الإنترنت لها علاقة بالعديد من المتغيرات والظروف الخاصَّة بالرموز الثقافية، والممارسات المتجسدة التي يستحضرها الأفراد في أذهانهم. حيث "يجد

(٣٦) أنطوني جيدنز، عالم جامح: كيف تعيد العولمة تشكيل حياتنا، مرجع سابق، ص٩٢.

الأفراد المشاركون أنفسهم يلعبون أدوارهم التفاعلية المتوقعة منهم تمامًا مثلما هي الحال في الحياة الطبيعية، ولكن وفق صورة الإتاحية الرقمية بمواصفات الفضاء السايبري... وفي هذا الصدد يرى إرفينغ غوفمان (Erving Goffman)، أن التفاعلات البشرية تحدث بطريقة كونها تعتمد على توقعاتٍ شرطية حسب حالة أو ظرف التفاعل situational expectations، وهي تؤثر في اتصال الفرد المشارك في التبادل الاتصالي"[٣٧]. فلا شكَّ أن التفاعلات البشرية عبر الإنترنت، تساهم في تحقيق التقارب العاطفي. غير أنه يجب أن نتذكَّر دائمًا أن هذه العاطفة هي - إلى حدٍّ ما - وهمية وتجعل من العلاقات البشرية باردةً في الآن نفسه؛ لأنها تفتقر إلى بعض الخصائص الأساسية للعلاقات الدافئة مثل المواجهة بين الثنائي وجهًا لوجه.

خاتمة:

في ختام هذا المقال، يمكن القول إن الحبَّ الافتراضي هو تعبيرٌ عن تحولاتٍ اجتماعية في المعايير والقيم الخاصَّة بالارتباط العاطفي، فهو يُعَدُّ بوابةً مفتوحة إلى العالم الجديد، خاصةً فيما يرتبط بالطرق المعتادة لمن يريد الزواج. علمًا بأن هذا الأمر يبقى محفوفًا بالمخاطر الاجتماعية، وبالضبط على تكوين الأسرة في المستقبل، حيث من الممكن أن تكون تجربة هشَّة وغير قابلة للتنبؤ بطبيعتها.

وعلى ما يبدو، فإن الإنترنت يعزِّز العلاقات الثنائية بين الشريكين خاصةً غير المتزوجين، حيث تمثِّل هذه العلاقة نوعًا جديدًا من نموذج الأسرة. فالحب الرومانسي رفقة الجنس أصبح المدخل الأساسي في تشكيل الروابط الزوجية. ذلك أن فكرة الحب الرومانسي كقاعدة للزواج حلَّت محلَّ الزواج كعقد اجتماعيٍّ واقتصاديٍّ، والذي كانت تنظِّمه الأسرة التقليدية، وهو الأمر الذي أصبح يهدِّد بشكل مباشر الأُسر التقليدية في بعض المجتمعات، مما جعل البعض منها تجد صعوبةً في التكيُّف مع عصر الاتصالات الإلكترونية.

(٣٧) علي محمد رحومة، علم الاجتماع الآلي، مرجع سابق، ص١٣٧.

المراجع المعتمدة:

- باومان، زيجمونت (٢٠١٦): الحب السائل، عن هشاشة الروابط الإنسانية، ترجمة حجاج أبو جبر، تقديم هبة رؤوف عزت، ط١، الشبكة العربية للأبحاث والنشر: بيروت - لبنان.
- باومان، زيجمونت (٢٠١٦): الحداثة السائلة، ترجمة حجاج أبو جبر، تقديم هبة رؤوف عزت، سلسلة الفقه الاستراتيجي (٣)، ط ١، الشبكة العربية للأبحاث والنشر: بيروت - لبنان.
- بك، أولريش (٢٠١٢): ما هي العولمة؟ ترجمة أبو العيد دودو، ط٢، منشورات الجمل، بيروت - لبنان.
- بك، أولريش&بك - غرنزهايم، إليزابيت (٢٠١٤): الحب عن بعد: أنماط حياتية في عصر العولمة، ترجمة حسام الدين بدر، ط١، منشورات الجمل، بيروت - لبنان.
- جيدنز، أنطوني (٢٠٠٣): عالم جامح: كيف تعيد العولمة تشكيل حياتنا، ترجمة عباس كاظم وحسن ناظم، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت - لبنان.
- دوفينيو، جان (١٩٩٣): تكون الأهواء في الحياة الاجتماعية، ترجمة منصور القاضي، ط ١، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان.
- رحومة، علي محمد (٢٠٠٨): علم الاجتماع الآلي، مقاربة في علم الاجتماع العربي والاتصال عبر الحاسوب، العدد (٣٤٧) شهر يناير، سلسلة عالم المعرفة، الكويت.
- ريجو، فيليب (٢٠٠٩): ما بعد الافتراضي، استكشاف اجتماعي للثقافة المعلوماتية، ترجمة عزت عامر، ط١، المركز القومي للترجمة، القاهرة - مصر.
- زارو، عبد الله (٢٠١١): سلطان العشق، مساهمة في سوسيولوجيا التعلُّق، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ٢٠١١.
- فروم، إريك (٢٠٠٠): فن الحب: بحث في طبيعة الحب وإشكاله، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد، دار العودة، بيروت - لبنان.
- Ben-Ze'ev , Aaron. (2004) : Love Online. Emotions on the Internet ; Cambridge University Press .

- Johnson, Paul. (2005) : Love, Heterosexuality and Society (Routledge Advances in Sociology) ;Routledge : London and New York.
- Pananakhonsab, Wilasinee. (2016) : Love and Intimacy in Online Cross-Cultural Relationships. The Power of Imagination ; Palgrave Macmillan.

مركز نهوض
للدراسات والنشر
NOHOUDH CENTER
FOR STUDIES
AND PUBLICATIONS

All rights reserved © 2019

جميع الحقوق محفوظة © ٢٠١٩